المشرق

العقائد المسيحية في الديامیس الرومانيّة

بقلم حضرة الخوري بولس سلمان

رومية ! تلك المدينة العظيمة التي انتشر ذكرها في العالم انتشار النهار لما جمعت في ربوعها من رفيع التذكار وجليل الآثار وما كانت عليهِ من الحضارة والعمران ايام القياصرة الرومانيين والباباوات العظام الذين اقاموا فيها من انواع الزين وفنون البهاء ما كفل لهم ثناء التاريخ على توالي الادهار لم تزل مهوى افئدة الناس اجمع ومطمح ابصار البشر على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واميالهم

يمرّ فيها المؤرخ فيقف في متاحفها ومكاتبها ويتأمل في رفيع مبانيها وما وعاه الدهر من بقايا الازمنة الخالية ويجيل في خاطرهِ تاريخ نشأتها وتقدمها في جميع اطوارها فيتمثّل قوّادها وابطالها وامراءها وملوكها وشعراءها وخطباءها كشيشرون وقرجيل ومن جاراهم في مضمار الآداب فيناجيهم على تنائي عهدهم ويحدثهم برقيق شعوره وتأثيرهِ ... يمرّ فيها الناقشون والمصوّرون وارباب الفنون الجميلة فيتعهّدون بابصارهم تلك التماثيل البديعة التي نقشتها يد الكبراء كيكال انج وغيرهِ من امراء الناقشين ويرسمون في محفوظهم ما رسمتهُ على النسيج انامل رفايل ومن ضارعهُ من نخبة الرسمين. هناك يعاينون تلك الاعضاء المنظمة ويستقصون كل حركة واشارة من تلك المصنوعات الجليلة ويدوّنونها في خواطرهم لأيام العمل — يمرّ فيها المؤمن وقد نالتهُ عواطف الحبّ والابتهاج فلا يخطو خطوة الّا يرى فيها حياة

الكنيسة الكاثوليكية. وكأنَّ الدهر الغائب ينبعث من لحده فيروي له تعاذيب العذارى والشهداء في مواضي الاجيال. وكأن الاحبار الرومانيين ينشرون من مدافنهم ويتراءون له بعزهم وفخرهم. هناك يجثو بالقرب من قبر الرسولين بطرس وبولس فيجري دمعهُ وينقطع صوتهُ عن الكلام وتلتصق شفاههُ على الرغام ساعةً وهو يصلي بكاء واحترام. هناك يتجلى لهُ حبر الاحبار بعظمتهِ وسلطانهِ فيعاين بعين الايمان من وراء ذاك الجسم الانساني ما نالهُ من القدرة الالهيَّة فيقف امامهُ وقد عجز اللسان عن الكلام لما تولَّاه من المهابة والوقار فتسيل عبراتهُ ناطقة بافصح بيان عما يمرُّ في قلبهِ من عواطف الورع والاكرام

تلك المدينة غدت في عصرنا الحاضر مرمى ابصار العلماء يتواردون اليها ويتهدَّدون ما فيها من البقايا والآثار وكأن الله اعدَّها لتكون كمجتمع البراهين في عصر تفرَّد عن غيرهِ بالالحاد والنكران. وحسبُ الناظر ان يسرِّح الطرف فيما تركهُ الدهر الغابر وما اورثنا اباؤنا من جليل الميراث ويستنطق الاحجار وما رُسم عليها من الكتابات الوفيرة ويعاين تلك التصاوير البديعة التي اصبحت كسلاح جديد للمدافعة عن الدين وارباب. ولقد استنَّ بما سطَّرهُ العالم دي روسي في مجلَّتهِ المسماة رومية الديامس (Roma Sotterranea) وما رسمهُ السيد ثيلپر (Mgr Wilpert) في كتاباتهِ الشهيرة. وقبل ذلك نأتي في مقالتنا ببعض الوصف للديامس في دهرنا الحاضر وما كانت عليهِ في مواضي الازمان (١

*

الديامس هي مقابر عظيمة نُقرت تحت الارض في الربوع الرومانيَّة طلباً لحاجات المسيحيين الاقدمين في مدافنهم وهي كثيرة الشعاب تتعارض من كل الانحاء ويخترق بعضها بعضاً وهي واقعة غالب الاحيان خارجاً عن اسوار المدينة على مقربة من الشوارع الرومانيَّة الشهيرة. وقد عثر الاثريون على خمسين مقبرة من هذه المقابر المخفيَّة ويقال انَّ مساحتها تنيف على مئتين وخمسين هكتاراً وطولها كلها يزيد على الف كيلومتر. وقد حفَر القدماء يميناً وشمالاً نواويس صغيرة كانوا يكفِّنون الجثث ويضعونها

١) فلبراجع القرَّاء المقالة الجميلة التي اقتطفناها في المشرق (١٣ (١٩١٠): ١٦١-١٧١) من خطاب لحضرة الاب دي لاروه اليسوعي في ديامس رومية

فيها . وكثيراً ما وُجد الاثريون بالقرب من تلك العظام قنينة جميلة بديعة الرسم مملوءة عطراً طيباً . وربما وقفوا على غير ذلك من الآثار . فان كان المدفون شهيداً وضعوا في تلك الزجاجات شيئاً من دمه الطاهر واقاموا بالقرب من عظامه مصباحاً زيّنوهُ بالكتابات والازهار . فقد سطروا على بعض المصابيح هذه الكلمات (lux Xristou) (φαῦς χριστοῦ) اي ان نور المسيح يضيء للكافة وفقاً لما قال السيد المجيد : « ليضئ نوركم قدام الناس ليروا اعمالكم الصالحة ويمجدوا ابا كم الذي في السماوات » . وكانوا يدوّنون القبور بالرخام او الفخار ويدوّنون عليها اسم الميت ويوم رحيله الى الديار الخالدة . وربما اثنوا عليه بمديح رقيق شعروا فيه مآثرهُ وختموا قولهم بصلاة الى المولى كي يُدخلهُ جنّات السعادة والسلام

ولو رام القارئ ان يعرف صورة الاجداث في تلك الديامس قلنا انها تشبه القناة الصغيرة كانوا يدخلون فيها الجثث ويوارونها عن العيان . بيد ان اهل الثروة منهم كانوا يدفنون امواتهم في محل ارحب واوسع ينشيدون بالقرب منهُ مخدعاً كبيراً تنساب اليه الانوار من فوهة كفوهة الآبار فترسل اشعّة ضئيلة تثير في القلب عواطف التقوى والاحترام

ولقد وصف المؤرخون حالة المؤمنين في هاتيك الازمان بما يورث الحزن والاكتئاب فكنت ترى المسيحيين أيام الاضطهادات نازلين جماعات جماعات حاملين المصابيح في تلك الظلمات فيكاد الرعب يغشاهم . على انهم بين اشجانهم كانوا يترنّمون ترانيم الحمد والثناء . فما اعذب ما كانت تلك الالحان العادمة في الليل لتختلط بانغام الجنّة وسكان السماء ! ويا حبّذا لو رقّم لنا الدهر تلك الاناشيد وهي صاعدة من اسافل الارض من نفس خائفة مكلومة ! هناك كانوا يرتلون اناشيد صهيون على انهار بابل بعيدين عن اوطانهم وسمائهم (مز ١٣٦ : ١) . وكانوا يستخدمون تلك المخادع لاعضاء الأسرة الواحدة وربما اشترك فيها بعض الاخلاء مشيرين الى انّ مَن جمعتهم على الارض علائق الوداد والحبّ لا بدّ من ان ترتبطهم روابط القبر واللحد حتى اذا تفتّتت عظامهم اختلط رمادهم واتّحدت بقاياهم . هناك في تلك الكهوف كانوا يلتئمون لاقامة المواسم يوم عيد الشهيد او بعد سنة مضت لدفنه فيحتفلون بالذبيحة الطاهرة وكسر الخبز . وقد بقيت تلك المخادع اللحدية وما يجاورها يزينتها

ورسومها وصورها الكثيرة الالوان وما رُقش على جدرانها من الكتابات. فاخذ العلماء يحبُّون الآثار يرسمونها ويصورونها قبل ان تفنى وتغيب عن الوجود لما يطرأ عليها من عوامل الايام وحوادث الازمان كالهواء والرطوبة والانوار (١

فبعد ان قدمنا تلك الملحوظات نقول: بدء الحقائق واساسها هي وجود الله ووحدانيَّتهُ فان الفلاسفة الوثنيين انفسهم ادركوا تلك العقيدة بتوقُّد ذهنهم وإعمال الفكرة وآلُ اسرائيل ورثوها عن ابائهم عصراً بعد عصر بالوحي الالهي . على ان السيد المسيح زاد بان الله ابٌ رحيم شفوق يحبّ الخطأة ويرحم البائسين وعلَّمنا بان ندعوه اباً محبوباً ولذلك نرى الكتابات تسمي الله الاهاً رؤوفاً وشفيقاً وصالحاً (ἀγαθός, ἐλεήμων, φιλάνθρωπος) يتبعنا من يوم نزولنا على ضفاف الحياة الى يوم وصولنا الى ابواب النعيم وهو يتقدَّمنا بانعامه ويتلونا براحمه والطافه. هناك الهتافات الكثيرة نحو العلي كقولهم: « تَحيَ في الله » (Vivas in Deo, ζῆθι ἐν θεῷ) ولربما سطروا ما كان عليه المائت من الايمان فانَّا نتلو على ضريح احدهم: آمنَ بالله الواحد (in unum Deum credidit) او آمن باسم الله (In nomine Dei) (٢

وكثير من الكتابات القديمة تقرُّ بلاهوت المسيح الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس. ودونك بعض النصوص فقد كتبوا على قبر احدهم هذه العبارة: لمرقس الذي يستريح بسلام في اسم المسيح (Marco, in pace in nomine ✻ quiescit)

---

١) ومع كون الدهر قد لعب بتلك التصاوير الجدارية وعفا عنها بعض الرسم فقد توصل السيد ڤيلپر (Wilpert) بالطرائق الكيموية الحالية الى نقل رسومها في كتاب لهُ مشهور قرَن فيهِ واسع العلم الى توقُّد الذكاء فجاء كتابهُ حافلاً بالتصاوير البديعة بالوانها ولمَّاعها وعطفاتها. ولقد قام من بعدهِ نفرٌ كبير من ارباب العاديات واصحاب الآثار في عصرنا فكفوا على درس تلك الخبايا وعادوا مذهولين مما هنالك من انواع التصاوير والكتابات. وقد اتت تلك الآثار بما هي عليهِ من الرقة والدقة من اوضح الشواهد على انَّ الكنيسة في اول عهدها ربَّت ما بين مؤمنيها مشاهير رجال ونخبة راسمين ومصوّرين ممن احبُّوا البديع فقضوا حياتهم يسطرون ما رأوهُ من محاسن الطبيعة وجمالها

٢) ولم نسطّر ما كانوا يسمونهُ (Graffiti) وهي كتابات كان يكتبها الزائرون في مواضع زيارتهم وبقيت هذه العادة بين الشرقيين الى يومنا فان زار احد كنيسة او محلًّا مقدَّساً دوَّن اسمهُ بالفحم او بقلم الرصاص قائلاً: اذكر يا رب عبدك فلاناً

ونجد في مقبرة كيرياكوس تلك الكلمات : انهُ يستريح في السيد المسيح (In Domino Christo) . وربما طاروا بالفكر والقلب الى السماء فوضعوا هناك في تلك الديار رجاءهم وافراحهم ومن ذلك قولهم : يا ريجينا ليتكِ تعيشين في السيد يسوع (Regina, vibas in Domino Iesu) . ولدينا بعض الكتابات اليونانيَّة وهي اقدم عهدًا من قسطنطين الملك حيث يعترف المؤمنون ويقرُّون بجلي البيان بلاهوت المسيح قائلين : رقد في المسيح الاله : Ἐν Θεῷ ✻ (١ او في السيد الاله Ἐν Θεῷ Κυρίῳ Ἰησοῦ وهذه الكلمة « كيريوس » مأخوذة من رسائل القديس بولس والانجيل القديس لوقا وهما يوردان تلك الكلمة بمعنى السيد المسيح الاله المتجسد . وفي المتحف البندقي (Venise) نجد قطعة رخام سُطرت عليها هذه الكلمات : In Do - mi - no nostro D. C. I. اي نؤمن بسيدنا المسيح الاله . وفي مقبرة پرسلا كُتبت هذه العبارة : آمن بالله يسوع المسيح ابن الله المخلص . وقد وضعوا صورة السكة لان كلمة سكة باليونانيَّة Ἰχθύς وكل حرف منها مطلع اسم من اسماء المسيح اي Ἰησοῦς Χριστὸς Θεοῦ Υἱὸς Σωτὴρ اي يسوع المسيح ابن الله المخلص

واما لاهوت الروح القدس فقد ذكرتهُ الكتابات كما نجدهُ في مدفن القديس كاليستوس حيث يقول ابٌ لابنهِ العزيز كيرياكوس : ليتك تعيش في الروح القدس (Kuriaco filio dulcissmo vibas in Spiritu Sancto) . وفي تلك المقبرة عينها نشاهد عماد السيد المسيح والروح القدس نازلًا على الابن بشبه حمامة بينما الماء يجري بالتؤدة والوقار والاشجار تهتزّ طرباً على شواطئ الاردن والحمامة ترفرف باجنحتها فوق المياه وصوت الله على المياه ينساب كالثلج ويقول : هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سُررت فلهُ اسمعوا . . . وفي متحف كيرشر نجد هذه الكتابة Ἐν ἁγίῳ Πνεύματι Θεοῦ اي بروح الله القدوس

ولنا عدد وافر من الكتابات تُنبئنا عن ايمانهم بالثالوث الاقدس وما كانوا يُردّون لهُ من فرائض العبادة والسجود وقد حفظ لنا الدهر كتابةً قديمة في مدفن پرسلا وفيها تمجيد للثالوث الاقدس قال كاتبها : « يا ابَ الذين انشأتهم وخلقتهم امنح السلام لركلُس . لك المجد في المسيح المصلوب »

١) ان هذا الرسم يدل على الكلمة اليونانيَّة Χριστός اي المسيح

Ὁ Πάτηρ τῶν πάντων οὓς ἐποίησεν Κ.αρέλαβεν εἰρήνην, ζωὴν Κ. Μαρκέλλον. Καὶ βάπτε Κ. καὶ ἐν Ἁγίῳ Πνεύματι

وان قابلنا تلك الكتابة بما ترتهُ في صلاتنا اليونانيَّة اتَّضح لنا جليًّا انَّ الاعلانات في آخر الطلبات (Ἐκφώνησις) هي قديمة العهد ترتقي الى الاجيال الاولى لانَّا نتلوها في ليتورجيا القديس يعقوب وفي تعليم الرسل الاثني عشر (διδαχὴ τῶν δώδεκα Ἀποστόλων) . وهذه كتابة اخرى وُجدت في مقبرة دوميتلَّا حيث يمدحون بركوديانس ويقولون عنهُ انهُ « آمن بالمسيح يسوع وعاش في الآب والابن والروح القدس » (vixit in Patre et Filio et Spiritu Sancto)

وتجد في ديامس رومية صور الخليقة جمعاء من الانسان الى الجماد . ففي بعض التصاوير نعاين السماء مصوَّرة بالنجوم السواطع والارض في ربيعها مقسمة حلَّة بديعة من ضروب الزهر وانواع الخضرة والاشجار تتمايل باغصانها والجداول تتراكض بين الصخور والاحجار او في السهول على الاعشاب وكاني بهم قد دعوا الخلائق باسرها لتمجيد الباري جلَّ جلالهُ . وقد صوَّروا ايضاً فصول السنة الاربعة وزيَّنوا الجدران بالاطيار كالحمامة والطاووس والعنقاء والحمامة رمزاً الى النفس الطاهرة . والطاووس يمثل القيامة لان ريشهُ يتجدد كل سنة مع تقادم الايَّام . ولدينا رسم بديع من النجوم السماوية في مغارة الاشيليين (Acilii) حيث ترى السماء بكواكبها اللوامع تزينها كتابة صغيرة رآها قسطنطين الملك وهي Ἴσθι νικᾷς اي بهذا تظفر

وقد صوَّروا في الديامس سقوط آدم وحوَّاء في الفردوس . وقد نالت تلك العقيدة حظًّا وافرًا فيما بين الشعوب القدماء حتى رسموها في معابدهم وهياكلهم ودونوها في كتبهم . ولقد الفى اهل العلم تلك الحقيقة عند المصريين والبابليين والاشوريين واليونانيين والرومانيين واهل الشرق الاقصى كالصينيين والهنديين . على ان المسيحيين قد اصلحوا بما عرفوهُ بالوحي ما دخل فيها من الحكايات والاوهام الباطلة . وقد صوروا آدم وحواء قبل السقطة وبعدها فهما طوراً بالقرب من الشجرة في الجنة يقطفان الثمرة المحرَّمة وطوراً تراهما بعيدين منها ويد متصاعدة من وراء السحاب تطردهما من الجنة . والحيَّة ملتفَّة على الاغصان

وقد مثلوا السيد المسيح كالك على عرشهِ والناس بين يديهِ خاشعين مذعورين

وربّما احاطوا به وسجدوا له مقدمين له فرائض السيادة والعبادة. وقد توفّرت منذ القديم تصاويرهم في الربّ يسوع ولطالما اعملوا الفكرة لاستنباط اجمل الوجوه وابدع الحركات والاشارات فلذلك تراهم يتفنّنون في رسومهم ولم يألوا في توفير عددها. واقدم رسم للمسيح ما كان رمزاً لاورفي (Orphée) وهو نادر الوجود نجدهُ ثلاث مرات ومعناه لا يخفى على من عرف الاساطير والحكايات الوثنيّة. فكما ان اورفي سحر الوحوش على زعمهم بانغام عوده والحان كتارته هكذا الرب يسوع ذاك المرنم الالهي قد غيّر طباع الوثنيين وما كانوا عليه من التوحش في عاداتهم البربريّة بما اتاه من رفيع التعاليم وسامي العقائد. ولقد مثلهُ المصورون سائرًا بين السهول والاعلام حاملًا عودًا جميلًا يرنم ترانيم الربوع والجنات او جالساً على شواطئ المياه ينشد انغاماً سماويّة فاذا سمعتهُ وحوش البراري والحيوانات الضارية سكن غضبها وانقادت الى غنائهِ المطرب. فيا حبذا ذاك الرمز وتلك الصورة التي تنطبق حق المطابقة على الرب يسوع وهو يجول في ربوع الجليل بين اشجار الناصرة او على شواطئ بحيرة طبرية او بين سفوح الكرمل او في اودية اليهوديّة. هناك على جبل التطويبات ترنو اليهِ الجموع الكثيرة. هناك الشيوخ البيض النواصي يصغون له باحترام ووقار. هناك الشبان يُسحَرون بعذب كلامهِ. هناك القوم كالبحر الساكن لا يبدون حراكاً امام ذاك الخطيب المصقع والشاعر المطرب امام ذاك المعلم الالهي

بيد ان صورة الراعي الصالح قد توفّرت منذ الاجيال الاولى وفقاً لما ورد في الانجيل الكريم حيث قال الربّ: انا الراعي الصالح وانا عارف برعيتي ورعيتي تعرفني. من رأى يوماً في جبال فلسطين ايام الربيع راعياً وانغامهُ تسرح ما بين الاعشاب والازهار يخال لهُ ان مصوري الديامس جالوا في ربوع الشرق قبل العمل ورعوا تلك المشاهد بمجالها وورنقها ثم مثّلوها على الجدران. هناك في تلك التصاوير تعاين الحملان ترقص بين الزروع الخضراء. هناك الخراف راتعات والاغنام جاثلات على الصخور حانيات رؤوسها بين الكلإ او صاعدات في الجبل والراعي يقرن الى صوت الطبيعة انغام مزمارهُ فتدوي طوراً مائتة الفضاء يتردد صداها في الجبال والاوداء ثمّ يغيب شيئاً فشيئاً في صدور القفر وسكونهِ. وطوراً يندفع هو نفسهُ في الفضاء ليسأل عن وحدتهِ في تلك الانحاء. هناك ترى الراعي الصالح يترك القطعة والقطعين خروفاً وينشد عن ضالّتهِ

حتى اذا وجدها حملها على اكتافه واتى بها فرحاً مسروراً ولذلك نعاينهُ دائماً في تلك الصور حاملاً حملاً ناعم الصوف ساكن البال. وربما مثلوا جداول الماء والاغنام منحدرات من اعلى الجبال لترتوي من تلك المياه. وربما وضعوا الى جانبهِ اناء حليب رمزاً الى الافخارستيا (١. وكانوا يرتلون في اناشيدهم: «يا ربّ نسألك انت الراعي الصالح ان تحمل نفس المائت على اكتافك الالهيَّة وتدخلها في ربوعك الازلية»

وقد رسموا المسيح على صورة السكة لان السكة هي رمز الافخارستيا. ومما يثبت قولنا كتابة شهيرة يرتقي عهدها الى القرن الثاني سطرها ابرقيوس استف هيراپوليس من اعمال افريجية حيث قال: «كان الايمان يعطيني لي طعاماً اينما نزلت سكةً من الينبوع عظيمة طاهرة اصطادتها عذراء نقيَّة وهي توزّعها على الاحباب طول الايام ليتناولوا بها». وقرنوا الى هذه الصورة رسم الحمل الاقدس وفقاً لما ورد في الانجيل الكريم: هذا هو حمل الله الرافع خطايا العالم. ويا حبّذا ما اتوا بهِ من المعاني والرموز البديعة فانك ترى انهار الجنَّة الاربعة وعليها حملٌ ناصع البياض فالانهار تشير الى الاناجيل الاربعة التي انتشرت في اقطار العالم من تلك التعاليم السامية الالهيَّة. وكثيراً ما رسموا الحمل تحت المرساة. والمرساة هي رمز الى الصليب الذي عُلّق عليهِ الحمل الفادي. وقد مثّلوا الحمل وحمامة بيضاء تُقبل اليهِ بفرح وسرور حاملة غرق زيتون دلالةً على انَّ النفس المحزونة الساءة في ارض الشقاء اذا وفدت الى الرب في سرّ محبتهِ تجد حينئذٍ سلام النفس وسكون الضمير. وربما اقبلت الحمامة تستند الى صدر الحمل لانهُ كما ان القديس يوحنا الحبيب اسند رأسهُ الى صدر الرب في العشاء السريّ كذلك النفس الطاهرة تستند الى قلب السيد يوم تتناولهُ في احشائها

ولو رمنا تسطير كل ما رسموهُ لوصف المسيح لطال بنا الكلام ولم ننل ما تصبو اليهِ الرغائب والآمال. ولقد اخترنا بعض التصاوير من حياتهِ المقدَّسة. فانَّ المسيحيين قد تتبعوا السيد لهُ المجد في اطوار حياتهِ فصوَّروهُ وهو طفل رضيع يرنو الى امهِ الطاهرة فيبسم لها ابتساماً ذا لطف ورقَّة يعجز القلم عن وصفهِ وايرادهِ. او ينظر الى

١) راجع مقالة حضرة الخوري جرجس عزيز «الافخارستيا في الاديان المسيحية» (المشرق ٤: ٦٢٤)

المجوس وهو يفتح لهم يديهِ الصغيرتين ويتعهَّد مـا يُقدم لهُ من الهدايا والتقادم. ولمَّا ترعرع وبدا كالشاب الرطب مثلوهُ على تلك الهيئة وعليـهِ حلَّة خفيفة كثياب الرومانيين الاقدمين. وعلى هذه الصورة مثلوهُ وهو يصنع العجائب والآيات. وعقيب الجيل الثالث حسَّن المصوِّرون لَيَّات وجه المسيح وعطفاتهِ حتى غدت صورهُ تقارب الكمال. فجعلوا لهُ من ثمَّ غديرتين تسيلان على كتفيهِ وصوَّروا عينيهِ على افضل ما رسمتهما يد الانسان والقوا عليهِ مطرفاً واسع الاهداب

واذا نزل الزائر الى ديامس برسلا يرى الملاك جبرائيـل مرفرفاً باجنحة قاطعة الفضاء الى ان يصل الى مريم العذراء فيقف امامها بالحشية والاحترام ويهديها التحيَّة والسلام ثم يبشِّرها بالمخلص الموعود بهِ من نشأة الادهـار. هناك يشاهد المرء فتاة تأسر الطارف حسناً وبهاء تخفي رأسها وبلسان حالها تقول: «ليكن لي كقولك» ولقد اعيد رسمها في مقبرة كاليستوس. وقد رسموا عن يمين العذراء الملاكَ جبرائيل قائلاً: ها انك تحبلين وتلدين ابناً ويدعى اسمهُ عمانوئيل. وعلى شمالها النبي اشعيا ينظر في اسفار النبيب مسطراً تلك الكلمات نفسهـا. وفي مقبرة القديس سبَسْتيان صوَّروا الطفل يسوع في احضان البتول مريم ودوَّنوا هذه الكلمات: عرف الثورُ صاحبهُ والحمار معلفهُ واما اسرائيل فلم يعرف خالقهُ. ومما يجمل ذكرهُ مـا رسم هناك من المناظر الجميلة حيث نعاين المجوس قادمين من بلادهم حاملين ذهباً ولباناً ومرًّا والنجم يلمع في كبد السماء. وقد البسوهم العامة والقلنسوة الفارسيَّة. وكثيرًا ما طار بهم طائر الفكر الى شواطئ الاردن فمثَّلوا عماد المسيح كما سطرهُ الانجيليون. وقد صوَّروا اعجوبة المخلَّع (١ وهي رمز الى غفران الخطايا لان السيد قال لهُ فيها: مغفورة لك خطاياك. وقال ايضاً: لكي تعلموا انَّ ابن البشر له سلطان على مغفرة الخطايا فانا اقول للمخلع لك اقول: قم احمل سريرك وامضِ الى بيتك. ومثلوا تكثير الخبزات (٢ وقيامة لعازر من بين الاموات مرات عديدة (٣ وتحويل الماء خمرًا في عرس قانا. وهذه الصورة من ابدع ما رسمهُ الرسامون: هناك ترى الاعمدة الرفيعة تكاد تلتصق بالسماء

١) قد صوَّروا هذه الصورة عشرين مرة في الديامس
٢) عُدَّت تصاويرها ثلاثين مرة ٣) مصوَّرة خمسين مرة

هناك الموائد الكثيرة والمدعوُّون جالسون على المقاعد المزينة والخدَم يذهبون من كل الجهات فيقدمون بترتيب ونظام انواع الاطعمة وضروب المآكل. وقد اكثروا من رسم صورة يونان النبي في الديامس اشارةً الى قول الربّ كما انَّ يونان بقي في بطن الحوت ثلاثة أيام هكذا المسيح يلبث ثلاثة أيام في بطن الارض ثمَّ يقوم ظافرًا على الموت والجحيم

٥

فبعد ان جشونا امام الابن صارخين مع الرسول: انت ربي والهي. علمَّ نعاين طلعة الامّ ونشاهد تلك الفتاة الالهيَّة ونستدلّ بالتصاوير عمَّا كان لها من الاكرام والاجلال في الاجيال الاولى. علمَّ فتأمل بتلك الملكة العظيمة الجالسة على عرشها بثوب مذهَّب موشًّى. فقد سبقت القديسين في الاكرام منذ الجيل الثاني ليس كما يزعم الملحدون انَّ المجمع الافسي اوَّل من اخترع اكرامها. ففي مدفن پرسلّا نجدها جالسة تارة بالقرب من ابنها على عرشها واخرى حاملة الطفل يسوع والناس يكرمونها. وقد وجد الاثريون في مقبرة پرسلّا ايضاً صورة يرتقي عهدها الى الرسل كما اقرَّ به الجاحدون انفسهم. نشاهد النبيَّ لشميا متردّياً برداء طويل حاملاً بيده الشمال درج الكتاب واليد اليمنى تشير الى نجم يسطع في السماء اشارة الى قول يعقوب: وها انَّ نجماً يخرج من اسرائيل. والطفل الرضيع يدير الطرف الى النبي بلطف وحنو. وممَّا يدلّ على اكرامهم للعذراء مريم ما نراه في المقبرة نفسها فانَّا نعاين شيخاً عن يمين فتاة تصلّي وبالقرب منهُ فتاة اخرى مكشوفة الراس وفي يدها درج. وعلى شمال المصلّية شابة جالسة على عرشها وقد ارتأى السيد ڤيلپر في شرحه لتلك الآية ان المسيحيين الاقدمين اشاروا بذلك الى تكريس عفتهم وطهارتهم للبتول مريم كما نشاهد في عصرنا الحاضر. فانَّ تلك الفتاة تكرّس عفتها للتي هي اعلى من الشاروبيم واكرم من السارفيم. وقد رسموا صورة البتول مغطاة الراس او مكشوفة وكثيرًا ما رسموها على الزجاج وعلى النواويس بما لا يحصى له عدد. وقد وجدوا لمم العذراء مريم على كاس مذهَّب محفوظ في المتحف اللاتراني

بيد انَّ الكنيسة كانت ايضاً موضوع رسوماتهم فتلك المصلّيات تمثل الكنيسة قاطبة تتضرَّع لاجل العالم اجمع. ولقد مثلوها كسفينة نوح تكدّها الامواج في بحر

العالم سائرة بين الصخور آمنة من غوائل العواصف والزوابع وكأن الرسام اراد ان ينبيء المؤمنين بتلك الصور انهُ خارجاً عن الكنيسة تجد الهلاك والبوار. وربما وجدنا المسيح نفسهُ يصلي باسطاً يديهِ على شكل صليب دلالة على انَّ الكنيسة لا ينتقض منها حجر ولا تخشى ابواب الجحيم ما دام الرب معها الى منتهى الاجيال يتضرَّع من اجلها

ولم ينسَ المؤمنون ان يرسموا بطرس القامة في الديامس وفي رسومهِ دليل باهر على ان الرئاسة البطرسيَّة لم تنشأ عن حبِّ الترفُّع والطمع في حبِّ المراتب كما زعم المنفصلون عن البيعة وارباب الضلال. ولقد جاءت الاكتشافات برهاناً ساطعاً على انَّ البابا هو راس الكنيسة (١ ولهُ قال السيد المسيح في شخص بطرس: ارعَ خرافي ارعَ نعاجي. واذا نزل الزائر الى تلك الديامس او مدخل الواتيكان وتبصَّر في تلك الآثار عجب كل العجب من وفرة ما يرى هناك من التصاوير القديمة التي تمثل الرسول بطرس فانَّ هذا العدد الوافر ينبيء عما كان عليهِ هذا الرسول من الرفعة والإكرام في الادهار الاولى فضلاً عمَّا محاه الدهر من الآثار. ومن غريب ما يُرى ان تلك الصورة ليست مبتكرة خياليَّة كصور المسيح بل تجري على رسم محدود وصورة معروفة معهودة والسبب بديهيٌّ وهو ان القديس بطرس عاش فيما بينهم بشراً وكارزاً فانطبقت صورتهُ في محفوظهم فرسموها كما عهدوها ودون ان يلحقوا بها تغييراً واصلاحاً. وكثيراً ما رسموا بطرس الرسول على الاقداح والكؤوس وذلك في طبقتين من الزجاج الملوَّن وزيَّنوها بالذهب الخفيف على غاية الاتقان وزخرفوها بالزهر والورد وربما سطروا عليها بعض كلمات كقولهم بطرس (Petrus). ولقد كثرت صورة الرسول بصحبة النبي موسى كليم الله فكما كان موسى في البريَّة قائداً ومرشداً لشعب الله الى ارض الميعاد كذلك اقيم بطرس رئيساً وامَاماً للامم المسيحيَّة. وكثيراً ما رسموهُ يصطاد سمكاً من بحر هذا العالم كما في مدفن كاليستوس وفقاً لما قال المسيح وساجعلك صيَّاداً للناس. فتراه طوراً يضرب

١) راجع المقالة النفيسة التي كتبها الاب لويس جلابرت في المشرق (٦ (١٩٠٣): ٥٧٧) وعنوانها الرئاسة البطرسية في ديامس رومية » وهناك عدَّة تصاوير نُقلت عن رسوم الديامس

الصخرة فتتفجر المياه كالانهار واخرى يلقي الشبكة على شواطئ البحار وتارة يسقي الشعوب من مياه الصخرة العذبة اي المسيح. وفضلاً عن ذلك رُسم مرارًا امام معلمه الالهي. فنعاين الربّ غير مرّة متقدماً لهُ العهد دلالة على انهُ هو موسى الجديد للشعب المسيحي. وكثيرًا ما ترى المسيح يسلمهُ المفاتيح طبقاً لما قال لهُ: وساعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما حللتهُ على الارض يكون محلولًا في السماوات وكل ما ربطتهُ على الارض يكون مربوطاً في السماوات. وما اجمل ما نعاينهُ في المتحف اللاتراني من بديع الرسم حيث نرى بطرس حاملًا الدرج اي التعاليم الخلاصيَّة كما نشاهد ذلك في ناووس سُطرت عليه هذه الكلمات: السيد يمنح شريعتهُ. لكنَّ الرسول لا يرث السلطان الالهي الّا يرث ايضاً الوعد بانهُ سيحتمل الآلام لاجل سيّده ولذلك قد رسموهُ حاملًا صليبهُ سائرًا وراء الرب يسوع. وفي صورة اخرى بينما الربّ يسلمهُ عصا الرعاية نجد الديك امامهُ اشارةً الى انَّهُ انكر المسيح ومع ذلك لم تُنتزع عنهُ سلطتهُ

ولقد جمهُ المصورون مع الرسل الكرام ولكنهم اقاموا لهُ بعض الدلائل تميزهُ عنهم كتاج العظمة والرفعة وعصا الرعاية او هالة مذهَّبة وضعوها حول رأسهِ لان الرب طوَّبهُ وبينما هو مكلَّل باكليل الفخر والمجد نعاين بقيَّة الرسل مكشوفي الرأس كما نجد ذلك في جرن العماد المحفوظ في رافنَّة. واذا قرنوا اليهِ صورة الرسول بولس رمزوا ايضاً الى قدرتهِ وسلطانهِ وقد ميَّزوهُ بطرف طويل والقديس بولس ينظر اليهِ رهبةً ووقارًا فطورًا يخطب امام الشعوب والاناء المصطفى يصغي الى اقوالهِ وطورًا يمنحهُ درج الناموس الالهي

ومما امتازوا بهِ في الاجيال الاولى الصلاة لاجل الاموات. فهم يتضرَّعون الى القديسين بكلام رقيق كي يُدخلوا الى السماء من يعزّ عليهم. فكانوا يضعون موتاهم تحت حماية الشهداء والمعترفين كما تقرّ بهِ كتابات عديدة من الجيل الثاني. قال احدهم: ايتها القديسة باسيلّا انا نكل اليك ابنتنا مسينا التي عاشت عشرة اشهر: (Domina Basilla, commendamus tibi Mecinen filiam nostram quae vixit menses x.). وكانوا يرددون في حفوظهم ذكر موتاهم ويصلون دون انقطاع من اجل نفوسهم ويطلبون لهم من المولى الرحيم الراحة الابديَّة والسلام التامّ ومحل هناء ومكان نور حيث لا وجع ولا حزن ولا بكاء بل حياة لا تفنى. ودونكم

كتابة جميلة قال كاتبها : (Ipsis , Domine, et omnibus in Christo quiescentibus, locum refrigerii, lucis et pacis ut indulgeas deprecamur) اي نسألك يا ربّ لهم ولكلّ الذين رقدوا في المسيح ان تمنحهم محل ندًى ونور وسلام . ولقد حفظت الليتورجيّات اليونانيّة والرومانيّة تلك الصلوات البديعة وهي ترنمها في صلواتها لاجل الاموات

هذا قليل ما اتينا بهِ من الآثار ولو رمنا ذكرها بطويل القال لمضى الزمان ولم ننل ما تصبو اليهِ الاماني والاوطار . ولقد صحّ ان ندعوها براهين الجوامد والاحجار وفقاً لما قال الرب في انجيلهِ الطاهر : ولو سكت الانام عن الكلام نطق الجماد وغنّت الاحجار .

مؤلّف الدلالة اللامعة

بقلم حضرة القس جرجس منش الماروني الحلبي

الدلالة اللامعة كتاب جدلي جليل مدار ابحاثهِ عن وحدة الكنيسة الجامعة الرسوليّة فحقيقة الرئاسة البطرسيّة العامّة وما تتفق بهِ الكنيسة الغربيّة والشرقيّة في المعتقد كالانبثاق والمطهر وما تفترق بهِ هذه عن تلك في الطقوس كالليتورجيّة والفطير والخمير وما يتّصل بذلك ممّا يخالف بهِ المنفصلون المتحدين من الطائفة الملكيّة الكريمة . وقد طبعتهُ المطبعة الواتيكانيّة بنفقة اقليمس مطران صور المشهور في سنة ١٧١٠ فبقي مُغفلاً لا يُعرف مؤلفهُ

بل جرى على الالسن وتناقلهُ الخلف عن السلف ان المطران اقليمس هو مؤلّف شتاتهِ ومنضّد بيّناتهِ ووواه نقرٌ من الخاصّة على علّاتهِ من مثل المطران غريغوريوس عطا في مختصرهِ التاريخي (ص ٢٤) ونقلهُ حضرة الاب لويس شيخو اليسوعي في المشرق الاغرّ (٥ : ٧١) وحضرة الفاضل الخوري قسطنطين الباشا الراهب المخلصي في مجلة المسرّة (١ : ٤٦٠ , ٣ : ١٨) الى غير هؤلاء من رجال هذا العصر المعروف بعصر التنقيب والاستقراء .